

٢٤- مستقبل الثقافة السياسية بين مفاهيم السلام والتعايش والمقاومة(*)

أ. السيد ياسين(**)

مقدمة

الثقافة السياسية السائدة في مجتمع ما صراحة أو ضمناً لا بد أن تعتمد على الذاكرة التاريخية، والتي هي إحدى الأسس التي يقوم عليها الوعي التاريخي، وقد سبق لى الاهتمام بموضوع الذاكرة التاريخية، بمناسبة مؤتمر فرنسي / مصري مشترك، ألقى فيه أستاذ فرنسي شهير بحثاً عن الذاكرة التاريخية المصرية والفرنسية معاً، واكتشفت أن الاهتمامات الجارفة التي ساقها البحث الفرنسي عن ضعف وتهافت الذاكرة التاريخية المصرية؛ مردّها إلى عيوب جسيمة في منهج بحثه؛ لأنه لم ينطلق من إطار نظري واضح في دراسة الذاكرة التاريخية عموماً. وقد اقترح في تعليقه أن تتم دراسة الذاكرة التاريخية بالاعتماد على منهج صاغه للفيلسوف البولندي آدم شاف، وطبقه في دراسة الأيديولوجية.. ويقول آدم شاف إن هناك ثلاثة مقتربات للدراسة الأيديولوجية: هناك الاقترب التاريخي؛ وهو كيف تشكلت الأيديولوجية، والاقترب البنيوي؛ ومعناه العناصر التي تشكل منها الذاكرة التاريخية، وخصوصاً النظر إلى الذات والنظر إلى الآخر (راجع هنا بالنسبة للذاكرة التاريخية المصرية كتابات الجيرتي من حيث نظرتهم إلى المصريين ونظرتهم إلى الفرنسيين)، وأخيراً الاقترب الوظيفي؛ أي الوظائف التي تقوم بها الذاكرة التاريخية، وخصوصاً أنها مجال إرهاب الوعي التاريخي للشعوب.

(*) نص مفرغ.

(**) مستشار مركز الأهرام للدراسات السياسية والإستراتيجية.

الذاكرة التاريخية إذن هي إحدى الأسس الهامة لبلورة الوعي التاريخي . وإذا أردنا أن نعرف الوعي التاريخي نقول إنه : « هو البنية الكلية لمختلف الأشكال التي نشأت تلقائيًا كالرواية والحكاية والأسطورة، أو تلك التي بدأها العلم، والتي يعي من خلالها المجتمع ماضيه، من خلال إعادة إنتاج الأحداث وتقييمها، أو بعبارة أخرى هي التي من خلالها يعيد المجتمع إنتاج حركته عبر الزمن» . . وقد أخذت هذا التعريف من «أ. راكيتوف» المفكر الروسي، في كتابه «المعرفة التاريخية» الذي صدر في موسكو عام ١٩٨٢ .

بناء على هذا يمكن القول إن الذاكرة التاريخية العربية الحديثة بدأت تكونها مع مواجهة الدول العربية المختلفة مع الاستعمار، سواء كان الاستعمار استيطانيًا كما كان في الجزائر، أم احتلالًا تقليديًا كما في العديد من دول المغرب العربي (المغرب وتونس وليبيا)، ودول المشرق (مصر والعراق)، أو نظم الانتداب (في سوريا وفلسطين) . . وإذا راجعنا الذاكرة التاريخية العربية في مجال الاستعمار؛ ستظهر لنا أسماء تاريخية لأبطال عرب بشهادة العرب المحكية عن أنفسهم، من أمثال رواد حرب التحرير العربية الشعبية في العالم العربي . لدينا اسم الأمير عبد القادر الجزائري في الجزائر، والأمير عبد الكريم الخطابي في المغرب، وعمر المختار في ليبيا .

ولدينا أيضًا في الذاكرة التاريخية العربية حرب التحرير الجزائرية المجيدة، ونضالات الشعب المصري والسوري والعراقي والفلسطيني ضد الاحتلال الإنجليزي والفرنسي والصهيوني، وفيها النموذج المعاصر لدينا حرب أكتوبر عام ١٩٧٣؛ وهي حرب مجيدة ونموذج رفيع في التخطيط السياسي والعسكري، وهي حرب حاول بعض المتعاطفين مع السيد أحسن نصر الله من العرب وبعض الكتاب المصريين - للأسف الشديد - أن يقارنوها بالحرب الأخيرة على لبنان؛ وهو ما ينم عن الجهل؛ بالإشادة ببطولات غير مذكورة ولا ينبغي تضخيمها على حساب الذاكرة التاريخية العربية للمقاومة العربية . . ولكي أثبت صحة هذه الملاحظات المخيفة فقد قرأت بعناية الكتاب الذي أصدره مركز دراسات الوحدة العربية، ويتضمن الأبحاث التي قدمت في ندوة عقدها بعنوان «الحرب الإسرائيلية على لبنان»، وقد عقدت هذه الندوة في سبتمبر ٢٠٠٦ وشارك فيها من هذه الكلية الدكتور: حسن نافعة، ود. نيفين مسعد، ود. أحمد يوسف، وقد جاء فيها من أحد الباحثين في معرض الإشادة بسماحة السيد: حسن نصر الله أمين عام حزب الله أن ما حدث يفوق كل ما حدث في العالم العربي من قبل . . وأنا أعتقد أن هناك تعميمات جسيمة في هذا الكلام

وخصوصاً فى كلمة «لم يحدث من قبل» . . لأنه كما قلنا هناك بطولات عظيمة فى تاريخ المقاومة العربية؛ مثل حرب أكتوبر، كذلك ذكر د. سليم الحص بالنص: «أظهرت الحرب على لبنان صلابه منطق المقاومة، فى مقابل عقم الحرب التقليدية فى محاربة الكيان الصهيونى». . وهذا كلام غريب فليس هناك مجال للمقارنة بين المقاومة والحروب التقليدية. والحرب التقليدية كحرب أكتوبر حررت الأرض المصرية، وبالتالى هذه المقارنة لمحاولة إعلاء ما فعله حزب الله على حساب كافة المقاومات العربية لا نعتقد أنها فكرة موضوعية.

نقطة البداية فى موضوع الشفافة السياسية والتعايش والسلام؛ هو ما أسميته ضرورة إحياء الذاكرة التاريخية العربية، وهذا الإحياء ينبغى أن يعتمد على الوسائل الإعلامية الجديدة؛ لكي نعرض على الشباب قضية المقاومة العربية فى إطارها التاريخى، وأنماطها البارزة.

النقطة الثانية هى ثلاثية: المواجهة، والتسوية، والمقاومة. . وأنا فى دراسة سابقة فى كتابى «الأسطورة الصهيونية والانتفاضة الفلسطينية» والذى صدر عام ٢٠٠١؛ كتبت ورقة بعنوان ثلاثية المواجهة والتسوية والمقاومة، ذكرت فيها المشاعر الشعبية الجياشة التى انطلقت فى مواجهة الأحداث الدامية فى فلسطين، والتى تمثلت فى الحرب البربرية التى قادتها إسرائيل لسحق الانتفاضة. . وتصريحات بعض القادة العرب ذهبت إلى أن القول إن الحل فى مواجهة إسرائيل هو الحل العسكرى؛ كلام يدل على أننا لم نتعلم بعد من نموذج حرب أكتوبر عام ١٩٧٣، فهذه الدعوات الغوغائية مثل الدعوة إلى الحرب أو فتح الحدود للجهاد؛ لا تأخذ فى اعتبارها أهمية التخطيط السياسى المتقن والإعداد العسكرى قبل أن تأخذ قراراً بالحرب. . وذكرنا فى هذه الدراسة أنه لا بد من اتباع إستراتيجية شاملة تنطوى على المواجهة والتسوية السلمية فى نفس الوقت، ونقصد بالمواجهة على وجه التحديد تبنى المقاومة كإستراتيجية عربية تعتمد على النفس الطويل، وتأخذ بكل أشكال القوة فى هذا المجال، وهى ليست القوة العسكرية فقط، ولكن هناك القوة المعرفية، والقدرة على إنتاج المعرفة واستيعاب المعرفة المعاصرة. . كل هذه أشكال متعددة من القوة لا بد أن نأخذ بها إذا أردنا أن نواجه إسرائيل مواجهة شاملة.

وفى النهاية أريد أن أشير إلى نقطتين هامتين:

النقطة الأولى: قضية الصراع بين العرب وإسرائيل هي قضية صراع حضارى، وفى مجال الصراع الحضارى هناك نظريات متعددة، وقد سبق لى أن عرضت فى كتابى «الوعى التاريخى وثورة الكونية». نموذجاً يقترحه بعض علماء العلاقات الدولية؛ حيث يفرقون بين صراع المصالح وصراع الفهم بنبرة استشرائية، يميزون فيها بين أنساق مختلفة من الثقافات كالثقافة العربية والثقافة الغربية الإسرائيلية، ويتحدثون عن ثقافة ذات نظرة «شمولية» تؤمن بالتبرير اللفظى والتعميمات، وثقافة ذات نظرة تفصيلية؛ تركز على المشكلات بشكل علمى. . هناك أيضاً تفكير ارتباطى وتفكير تجريدى؛ حيث يشيرون إلى أن العرب يميلون إلى هذا التفكير الارتباطى، الذى يقوم على الحدث بعكس التفكير التجريدى.

وحول انعكاسات الثقافة السياسية فى المجتمع الإسرائيلى والمجتمع المصرى؛ ففى المجتمع الإسرائيلى هناك دراسة يجب على مركز الدراسات السياسية بالكلية بالاشتراك مع مركز دراسات الأهرام أن يتعاونوا معاً فى ترجمتها والتعليق عليها؛ وهى دراسة هامة بعنوان «ما بعد الصهيونية» (صدرت مؤخراً)، وقد انطوت على مؤشرات فى الحرب الأخيرة تدل على تفكك الروح المعنوية للمقاتلين الإسرائيليين. وما بعد الصهيونية فكرة جوهرية ترى أن الصهيونية مرحلة فآت أوانها، على أساسها أقيمت الدولة وانتهت القضية، والحروب الأولى بشأن تأسيس الدولة انتهت. . ومن هنا فإن الروح المعنوية لدى المقاتلين الإسرائيليين منخفضة ومفككة، وما يمكن تسميته مناخ ما بعد الحداثة يشيع فى المجتمع الإسرائيلى؛ حيث يشيع الاستهلاك والرغبة فى التمتع بالحياة. . فلماذا يعمتون فى سبيل أهداف يحددها قادة عسكريون إسرائيليون متعصبون من الجيل السابق من الصهيونية.

أنا أعتقد فى مجال الثقافة السياسية المتغيرة أننا لا بد أن نتعمق فى دراسة «ما بعد الحداثة» وما بعد الصهيونية، وتحت يدي مرجع هام لما بعد الحداثة، وهذا المرجع يحتوى على حوالى عشرين دراسة لكبار المفكرين الإسرائيليين الصهيونيين، الذين يتقنون ثقافتهم، كذلك من المؤرخين الإسرائيليين الجدد من يتحدثون عما بعد الصهيونية، ويحاولون تثبيت المثال الصهيونى الأصلى. هذا موضوع ينبغى دراسته لأنه سيوضح التفكير الإسرائيلى إزاء العرب وإزاء التوسع الإسرائيلى.

ماذا عن الثقافة العربية السائدة الآن فى العالم العربى؟

أسميتها أنا ثقافة «الأس»؛ لأن حلقات النظم السلطوية استحكمت حول الشعوب العربية، وولدت ردوداً شعبية يائسة . . ونلاحظ على الفضائيات تحريض الشعوب والفضائيات أيضاً على الحكام العرب بأنهم حكام ضعاف، وكلهم خونة وكلهم عملاء، ولا بد من شن الحرب على إسرائيل . . . هذا ما أسميته «ثقافة الأس»؛ وهى ثقافة تعبر عن الغوغائية فى التفكير والغوغائية فى التعبير، والدعوة إلى شن الحرب بدون إنتاج خطاب سياسى عقلانى يميز بين المواجهة وبين التسوية وبين السلام.

لذا أعتقد أننا فى حاجة إلى دراسة متعمقة لما أسميته شيوع ثقافة الأس فى المجتمع العربى المعاصر، ومن ناحية أخرى شيوع ثقافة ما بعد الصهيونية فى المجتمع الإسرائيلى . . هذا هو مستقبل الصراع بين مجتمع إسرائيلى يتفكك تدريجياً، وبين مجتمع مفكك أصلاً ويفتقد رؤية إستراتيجية وليس لديه أمل فى المستقبل؛ نتيجة لاستحكام حلقات الاستبداد فى الوطن العربى.

الثقافة السياسية على كلا الجانبين إذن تجتاز أزمة، ونحن كباحثين علميين نحتاج إلى دراسة متعمقة حتى نستشرف المستقبل، ونرى كيف يمكن أن يتم التفاعل بين الجمهور الإسرائيلى فى هذه الدولة العنصرية، وبين الشعب العربى الذى يناضل من أجل تحرير أراضيه من الاحتلال الإسرائيلى، ومن الهيمنة الأجنبية على السواء.
